

النص النقدي وأسئلة المنهج
تجربة محمد مرتاض النقدية نموذجا

د. أحمد طايحي
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس (المغرب)



Abstract

There is no doubt that the curriculum cash in literary studies, is a point of view, the Steps Foundation think tank, is along the lines of scientific thinking. It depends proper organization and arrangement leading to the elucidation of the technical peculiarities of literary texts, and disclosure standards for references, creative problem. This study and discuss the most important dimensions of the methodology and the cash in the writings of a modern contemporary critics, a personal critic Professor Muhammad Mourtadh

1). تقديم

1.1- عتبة أولى

لا شك أن المناهج النقدية في مجال الدراسات الأدبية، هي عبارة عن وجهة نظر، مؤسسة على خطوات فكرية، هي على غرار التفكير العلمي. إنها تعتمد التنظيم الصحيح، والترتيب المؤدي إلى استجلاء الخصوصيات الفنية للنصوص الأدبية، والكشف عن المعايير المشككة لمرجعياتها الإبداعية.

هذا، وليس بخاف على المتتبع لشأن مناهج الدراسات الأدبية وتطبيقاتها في الخطاب النقدي العربي بعامة، والخطاب الجزائري منه بخاصة، أنها لم تكن فيما بينها متجانسة تمام التجانس، تتحدث الخلفية المرجعية نفسها، وتتبنى " قراءة القراءة " ذاتها، في مقاربتها للنصوص الأدبية، بل إنها كانت وستظل تنزع نحو اللاتماثل في كثير من مفاهيمها الإجرائية، ومؤدياتها التطبيقية؛ وذلك لسبب جوهري يكمن في طبيعة النصوص المقروءة، التي تحيل - في أصل تخلقها الأول - على معطيات تجمع بين اللغوي، والتاريخي، والاجتماعي، والنفسي، والسيميائي، والانثروبولوجي...

وتأسيسا على هذا المعطى - معطى مشروعية تعدد القراءات، تنظيرا وإنجازا- فإننا نتقصد، بهذه الورقة المتواضعة، المساهمة في الحوار الذي يشهده الخطاب النقدي الأدبي بالجزائر، وبخاصة فيما يرتبط بالآليات التي تسنده في قراءة النصوص الأدبية والنقدية، وتعيين ضوابط ومستويات تفاعل قارئ ناقد من طينة، الأستاذ الدكتور محمد مرتاض، مع المكونات النقدية النظرية العربية، وتظهراتها الجمالية والمعرفية في هاتيك النصوص بخاصة.

2.1- عتبة ثانية

ولن نباعد في القول إذا ما أقررنا أن الأستاذ محمد مرتاض ليس بحاجة إلى مديح أو تقريظ، ذلك أن إسهاماته العلمية- الأكاديمية، وخصال النبل التي يمتاز بها، تثني عليه، بوصفها شاهد صدق. وإذا السياق سياق قراءة ونقد، والمقام مقام تدافع علمي، فإن المادة التي ينهض عليها المشروع القرائي للأستاذ مرتاض، تنتزع مصداقيتها من هذا التنوع في الإبداعات الأدبية، والأبحاث والدراسات النقدية، رصدًا ومساءلة.⁽¹⁾ ولذلك سنعمد - ما ألزمتنا مقاصد المساهمة- إلى حصر بعض مستويات تلقي النص النقدي، وتحديد الشروط التي تحكم في بناء أسئلة المنهج لدى الدكتور محمد مرتاض، وسنعمد، لأجل ذلك، على كتاب اصطفى له عنوانا، هو "النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره". وإذا كان هذا السفر يجسد محطة متميزة في رحلة القراءة النقدية عند باحث وأستاذ جامعي، فلأنه يستفز في قرائه قلق السؤال إزاء إشكال منهجي، تمت صياغته والبحث عن إجابة له.

على أن نص القراءة الذي سنختاره منهاجا لنا، ههنا، فيتأسس أولا، على المعطى النقدي للشعرية العربية القديمة. وثانيا، على الإسهامات النقدية لنظرية التلقي في صياغتها الألمانية (مدرسة كونستانس). وثالثا، على منظومة المفاهيم والأدوات المؤسسة لبعض المناهج النقدية، التي قرأت النص الأدبي- النقدي، من منظور المعطيات الخارج- نصية.

ولا بد من الإشارة إلى أننا تعمدنا عدم الإفاضة في الشق المتعلق بالجانب التنظيري من هاتيك المناهج والمفاهيم، وهذا إجراء موقوف الفهم على مقاصدنا في جعله مندغما في إجراءات تحليل قراءة، الدكتور محمد مرتاض، للمرجعيات التأسيسية للنقد العربي القديم بالمغرب. لذا، فقد جهدنا في الوقوف عندها إنجازا.

هذا، والفرضية التي نرغب في بيانها في هذه الدراسة، هي أن تحصيل الباحث محمد مرتاض للمعرفة بمكونات الصناعة النقدية العربية في المغرب العربي، بحلول القرنين الخامس والسادس الهجريين، كان محكوما، في المرحلة الأولى، بمقصدية التفكير في مشروعية "حضور" تلك الصناعة، عبر تأصيل هويتها التي ستكون نقيضا مباشرا للغياب"، بله، للتغيب الذي طالها بمر الأحقاب وتوالي السنين. وفي المرحلة الثانية، كان مغالبا ومحاصرا بسؤال منهجي -إيديولوجي، يتعلق بتحديد "الوضع الاعتباري" للشخصية المغربية الناقدة، من داخل الصناعة النقدية العربية القديمة.

وهذا ما سيؤدي بالباحث إلى بناء أسس لقراءة ذات مسارين متوازيين ومتآخذين، هما:
أ- مسار اعتمد فيه على "عرض المعرفة"، أي من خلال مقارنة وصفية تستحضر الإقليمية النقدية، التي تجسد بعدا ثقافيا وحضاريا "اتباعيا" تستكمل من خلاله دائرة النقد العربي القديم.

ب- مسار اعتمد فيه على "قراءة إنتاجية" تساؤل الثابت والمتحول في النسق النظري – المنهجي، الذي تحكم في الدراسات النقدية المغربية القديمة آنذ. يقول الدكتور محمد مرتاض بهذا الشأن: "ولابد من التنبيه على أن هناك إشكالات ما تبرح مطروحة:

- ما مدى وضوح الرؤيا في النظريات التي تركها هؤلاء النقاد ؟
- ما هو الفرق الدقيق بين منهج وآخر بالنسبة لكل ناقد ؟
- ما هي الإضافات الهامة التي حملتها آراء هؤلاء؟.."(2)

2- الشكيلة المنهجية والتصريح بالمقاصد:

لعل الشكيلة المنهجية التي بسطها الأستاذ محمد مرتاض، في الخطاب المقدماتي الذي هيا، خلاله، وضعية تداولية تلائم آفاق توقعاتنا(3)، لخير مصرخ لنا في تعضيد سلامة الفرضية التي سقناها سلفا. فأخذا بعين الاعتبار للمدخل الذي اختص ببيان التحقيق التاريخي للنقد العربي القديم، وكذا الحفر في أهم الروافد الثقافية التي تمثلتها، مرجعيا، الدراسات النقدية المغربية القديمة؛ ناهيك عن خاتمة البحث المفتوحة، وثبت بمصادره ومراجعته وفهارسه الفنية. قلنا: فقد نهض مشروع الأستاذ محمد مرتاض على خمسة فصول، كل واحد منها – بما تضمنه من مؤديات نقدية- استطاع أن يستقصي "الوجود" الفعلي للصناعة النقدية المغربية في مظانها الأصلية، وضمن تصوراتها النظرية، وما استتبع ذلك من تحولات في صيورتها التاريخية. كما أنه استطاع أن يوجه فعل القراءة توجيهها يحاجج إيجابيا، المنجز التطبيقي في إسهامات نقاد مغاربة نموذجيين(4)، من أمثال: إبراهيم الحصري، وعبد الكريم النهشلي، وابن رشيق المسيلي، والقزاز القيرواني، وابن شرف القيرواني والقاضي عياض.

كان ما اختص به الفصل الأول، هو مفهوم الشعر وبنيته عند نقاد المغرب العربي، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين(5). وتطرق، في الفصل الثاني، إلى القضايا النقدية الكبرى، التي انشغلت بها الشعرية العربية القديمة، مشرقا ومغربا؛ كقضية اللفظ والمعنى، والقلم والجديد(6).

أما الفصل الثالث، فقد حرص خلاله، الدكتور مرتاض، على بيان تصور النقاد المغاربة للضوابط، التي تتحكم في العملية الإبداعية. وقد استلزم منه ذلك مقارنة نظرية وفنية لقضايا، من نسغ السرقات الشعرية، و الطبع والصناعة، والقيمة الجمالية للصناعة الشعرية: أفرادا وتركيبا، وإيقاعا.(7)

وكان ما انفرد به الفصل الرابع، هو البحث في خصوصيات المنهج النقدي، وبيان المرتكزات المؤسسة له، في الدراسات النقدية المغربية القديمة، من قبيل: النقد الذوقي، والنقد الخلقى، والنقد التطبيقي، والنقد النفسي، والنقد الذي يمزج بين البلاغة والنقد(8).

على أن الفصل الأخير، كان الاهتمام فيه منصبا على بيان أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف، بين الإسهامات النقدية المغربية، تصورا وإنجازا.(9)

إن محصول هذه الشكلية المنهجية، يظهر مدى الوشيجة المنعقة بينها، وبين متصرف المقاصد المسكوت عنها من الكتاب كله. صحيح أن الأستاذ مرتاض، لم يتنخل موضوعات الفصول، كما اتفق، بل استنبطها- كما يقول هو نفسه-(10) من آراء النقاد المغاربة وانتزعها من مصنفاتهم. وأكد كذلك، أن منهجيته القائمة على إدخال نظريات هؤلاء النقاد تحت باب معين، أو فصل خاص كانت تطبيقاً لمبدأين جوهريين في المنهج النقدي التاريخي، هما: مبدأ التطور ومبدأ روح العصر(11).

لكن بالرغم من ذلك كله، فبمستطاع المتأمل في هذه الشكلية المنهجية الناضجة للكتاب، أن يلحظ أن مقومات التصور المنهجي-النقدي، في قراءة الدكتور محمد مرتاض للنقد العربي القديم بالمغرب العربي، قد بنيت على مقاصد عامة وخاصة، يؤلف بينها وازع مشترك، يتمظهر في:

(أ)- وقوفه عند ثابت "العلم" من حيث استعراض معرفة ضافية بالنقد الأدبي بإقليم المغرب، في قرنين هجريين محددين. ولهذا فهو يصنف عمله النقدي هذا، ضمن ما أسماه بـ "الدراسة"؛ هذه التي ستكون مدخلاً لبيان "نشأة" ذلك النقد، وتعييناً لمراحله "التطورية"(12) في التربة والمناخ المغربيين.

لقد حاولنا - يقول الناقد محمد مرتاض - "أن نؤرخ لظهور النقد الأدبي في المغرب العربي، وأن نزيح الستار عن بعض الشخصيات التي استطاعت أن تفرض وجودها، وتثبت قدراتها المعرفية والنقدية من خلال ما تركته من بصمات واضحة في مجال النقد الأدبي"(13).

ويتفق على هذا الوجه المنهجي، أن محمد مرتاض يمتلك معرفة سابقة بالصناعة النقدية وبالمعايير المشكلة لها؛ إنه قارئ خبير(14)، يمتلك ذخيرة نقدية عربية واسعة، تحصلها في مراحل متتالية من تاريخ تفاعله مع المكونات التنظيرية للنقد العربي القديم(15).

(ب)- توجيه قراء الشعرية العربية القديمة إلى قراءة النقد العربي قراءة توازن، بين تحذير الوعي بالانتماء القومي، وذاك الذي يؤصل الوعي بالانتماء الإقليمي والوطني؛ أي في إطار ما أسميناه بـ: "الإقليمية النقدية". إن الصناعة النقدية بالمغرب العربي، تحتاج إلى من يدافع عنها، ويرد لها الاعتبار، وذلك عبر دعم الوعي النقدي وتصحيحه لدى القارئ العربي، بما يسد الفراغ الحاصل في تاريخ النقد العربي عموماً(16).

يقول الأستاذ محمد مرتاض تقريراً لما أوضحناه: "لقد كان البحث في أدب المغرب العربي القديم حتى عهد متأخر من قبيل المغامرة والتحدي...، وإذا كان هذا هو الحال في الأدب، فإن الأمر في النقد أعسر وأعقد. أما في الجزائر؛ فما يبرح هذا الموضوع بكرة...، وباستثناء بضع دراسات، فليس هناك كثير...، وغدت الحاجة تزداد إلى دراسة هذا الأدب ونقده، مع النضج في الفكر عند أبناء المغرب العربي...، وقد يصاب المرء بحسرة وهو يقلب برامجنا الجامعية، فلا يلقى إلا صورة باهتة لهذا الأدب ونقده.

فالنقد الأدبي القديم في هذا الإقليم إذا، لم يكن شيئاً مذكوراً منذ مدة، لكنه الآن بدأ يفتق شرنقته للخروج إلى النور. [و] كان من وراء الخوض فيه، ما لاحظناه من فراغ مهول في المكتبات الجزائرية والعربية، وفي المكتبات الجامعية بخاصة، ولاسيما مكتبات معاهد اللغة العربية وآدابها..". (17)

(3) - القراءة التأصيلية لدى الناقد محمد مرتاض: مركزاتها ومستوياتها.

تتمتع المنهجية التأصيلية بموقع جد متميز، في مجمل الوسائل والآليات التي يتكئ عليها نص القراءة عند الأستاذ محمد مرتاض، في مقارنته للخطاب الأدبي عموماً، وللصناعة النقدية المغربية القديمة تخصيصاً. وإذا كانت أسئلة المنهج النقدي، تقتضي منا حصر المجال التصوري الذي تتحرك ضمنه المنهجية التأصيلية" (18) - على فرض أن المفهوم الواحد، يمكن أن يحد بتحديدات شتى، تختلف باختلاف الخلفية المعرفية التي يتصل بها، ووفق المقاصد التي يسعى إلى تحقيقها (19) - صرنا إلى القول بأن أشكالها ومستوياتها، إنما تتمظهر في:

أولاً: التثبت من أصول النقد العربي بالمشرق، وبيان حضورها وتشكلها في الزمان والمكان بصورة صريحة أو مضمرة؛ وذلك ضمن منهجية تأريخية - تطورية، تضع مادة النقد في سياق التحولات الاجتماعية، والقوانين الطبيعية لنشأة الظواهر ونموها وتطورها (20). لهذا " قبل أن ندخل إلى النقد المغربي وقضاياها - يقول محمد مرتاض - نرى من الأمثل أن نعقد فقرات للنقد العربي بصورة عامة،.. ولكن مما لا نسهو عنه هو إيراد طائفة من هذه البدايات الأولى له". (21)

ويقول كذلك: " وغير خفي أن كتاب الجاحظ [البيان والتبيين] قد ظل زمناً رافداً من روافد الثقافة العربية الأصيلة..، ثم جاء ابن المعتز..، وخلف من بعده قدامة بن جعفر..، وعرف أبو هلال العسكري بنظريته في اللفظ..، ويظهر ناقد عربي بعد ذلك كان له الباع الطويل إنه عبد القاهر الجرجاني..، ثم يأتي الآمدي الذي اشتهر بمنهجه في النقد التحليلي..". (22)

ثانياً: التدقيق في أصول النقد الأدبي في المغرب العربي، ومحاولة التثبت مما اعتبر مناهج نقدية مبتكرة فيه. وقد تم ذلك، عبر كتابة حفرية - تأريخية تراعي، من حيث المنهج، مبدأ " النسبية " في الحكم، والاعتراف الصريح بصعوبة التحديد الدقيق لكلا المطلبين. بتعبير آخر: لقد حاول الباحث أن يتتبع تلك الأوليات، وأن يبحث في الضوابط المنهجية التي قامت عليها بعض المحاولات المغربية لتأسيس مناهج نقدية مبتكرة، لكن لم يستطع - وهو القارئ النموذجي - أن يبين ويشيد الصورة الحقيقية التي كان عليها النص النقدي المغربي، بحسب أفق التوقع الذي يفترض أن تكون عليه النصوص الأولى، أو المناهج النقدية المستحدثة. (23).

يقول الأستاذ محمد مرتاض بهذا الشأن: " ولكن من هو أول ناقد في المغرب العربي؟ إن الجواب عن هذا السؤال ليس سهلاً للأسباب التي ذكرناها آنفاً (24)، من وجهة، ولأن تحديد التاريخ الدقيق يصعب

من وجهة ثانية، حيث إن هنالك رسالة لابن المدبر، الذي عاش في القرن الثالث الهجري إبان عصر الجاحظ، تدعى " الرسالة العذراء ".

ولذلك لا يلتفت لما زعمه بعض الباحثين من أن القرن السادس للهجرة يمثل الانطلاقة الحقيقية للنقد في المغرب الأقصى خاصة، وأن النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة هو الذي يمثل ذلك في الجزائر على يد عبد الكريم النهشلي..(25).

ويقول: "مما لاشك فيه أن من أعسر الآراء ومن أصعب النظريات هو التوصل إلى مدى الجديد الذي يجيء به هذا الناقد أو ذاك بسبب ما يتطلبه مثل هذا العمل من رصد كامل لكل النظريات والمفاهيم النقدية التي قيلت قبلهم، ثم التدقيق فيها... لذلك لن نكون مسترعين في هذه النقطة ولا متشددين، وإنما سنستضيء بالمنطق أكثر، وننهج الوضوح في كل ما نستشهد به في هذا الباب".(26)

ثالثاً: إظهار الطابع التسلسلي للظواهر النقدية المغربية من عصر إلى عصر. ويقوم جوهر هذه المنهجية على:

أ- تنظيم المادة النقدية، بتصنيفها إلى حقب تضعها على مسارين: مسار الزمن التاريخي المؤطر في القرنين الخامس والسادس الهجريين. ومسار تحقيقي بحسب القضايا والنظريات والمناهج التي طرقتها النقاد المغاربة آنئذ. إن استعانة الناقد محمد مرتاض بهذه المنهجية، إنما هو بغاية إقامة تصور متكامل للأعمال النقدية المغربية المنحزة في الماضي. وتظهر أهمية هذه المنهجية في قوتها التشييدية، وما تقدمه من تصور يضيء آفاق توقعاتنا لموضوع تاريخ النقد الأدبي بالمغرب العربي(27).

في سياق هذه الآلية المنهجية إذا، نستطيع أن نؤكد بأن تحديد الناقد محمد مرتاض للحقبة التاريخية وتخصيصها وتسميتها، إنما هو، في العمق، تحيين لأفقها التاريخي الأول، واستعادة للزمن النقدي الأدبي المغربي في سيرورته الخاصة(28). نقصد، استعادته في ضوء أسئلة الحاضر وحاجياته، ومنحه دلالات تتوافق وأفق انتظارات الناقد محمد مرتاض في القرن العشرين.

ب- يقوم على ربط الإسهامات النقدية بالمشترك العام من النسق الثقافي العربي، وهي آلية منهجية تستقي وجودها من وحدة المناخ الثقافي العربي العام (وهو ما ألحنا إليه سلفاً). هكذا جاء التفكير النقدي عند ناقدنا قائماً على افتراضات منهاجية(29) هي على الصورة التالية:

1- ربط الصناعة النقدية المغربية بمحيطها العربي القديم، وبسنتيتها النقدية. يقول الأستاذ مرتاض: " وحين ندرس هذا النقد المغربي، فإننا لا نريد أن نبتر الصلة التي تربطه بنظيره في المشرق العربي، لأن الآصرة قائمة...، أصف إلى ذلك أن القريحة العربية، وإن تباعدت سكناً، فإنها تتشابه(30) إنتاجاً [...] إن كل محاولة لبتّر الأواصر الأولى، واجتثاث الجذور التي تترامى أطرافها إلى عمق الاتصال بين العرب، يعد من قبيل الغلو"(31).

2- ارتكان الصناعة النقدية المغربية بنزعة تطويرية، تبدأ بالنشأة تقليدا واتباعا، وتمر بمخاض التطور في سياق تعاقبي داخلي، لتصل إلى مرحلة النضج وبناء الذات.

3- ربط النقد المغربي القديم بمحيطه أو إقليمه. فالناقد محمد مرتاض، اعتمد اتجاهها نقديا إقليميا، حيث تنبه خلاله، إلى أن النقاد، من أمثال إبراهيم الحصري، وعبد الكريم النهشلي، وابن شرف، والقاضي عياض، وابن رشيق، إنما هم – إضافة إلى مثاقفتهم النقدية – ثمرة من ثمار البيئة الجغرافية المكانية، والبيئة التاريخية الزمانية، والبيئة الثقافية الفكرية (*). إن لكل قطر يقول مرتاض "طبيعته الخاصة ولكل بيئة تصورها الذي قد لا تلتقي معها فيه بيئة أخرى، لذلك ظلت بعض القضايا [النقدية] – تطرح بمحده هنا، ولكنها لا تطرح بالصورة نفسها هناك" (32).

رابعا: إعادة قراءة السياق التاريخي الذي تأسست ضمنه القضايا النقدية الكبرى، في القرنين الخامس والسادس الهجريين. وذلك عبر توفية حظوظ المنهجية القائمة على قاعدة "الشرط التاريخي" (33) وتقوم هذه القاعدة، عند الأستاذ مرتاض، على أساس أن الحركة النقدية في المغرب العربي – سواء في بداياتها الأولى، أو بتمت القرن الخامس وبداية السادس – إنما قامت نتيجة لكثير من العوامل والأسباب التي كونتها، تشترط على الناقد الباحث تدبرها والإلمام بها. يقول: "والذي يعيننا في هذا المقام إنما البحث عن هذه المناهج النقدية في التاريخ الأدبي للمغرب العربي ...، [و] يمكن أن تلتمس في مختلف المؤلفات التي كتبها الأصوليون والرحالون والمرحون" (34). أي أن منهجية التفكير النقدي لدى الناقد المؤرخ يجب أن تكون مبنية على التمهيد والنش والتتقيب (35) في مجمل الروافد الثقافية، التي ارتكز عليها النقد المغربي، في نشأته وتطوره، واستقلاله. ومن هذه الروافد:

1- رافد محلي: يتمثل خاصة في الحركات الفكرية التي شهدت المراكز الثقافية في المغرب.

2- مشرق طارئ: وهو ضروري زاد النقد المغربي ثراء. فما ظهر من نظريات مشرقية، ومن برز من نقاد وأدباء، يمكن القول إنهم جميعا يمثلون "رافدا عظيما أفاد منه الدارسون والنقاد في هذه الربوع المغربية" (36).

3- ما يتمثل في المنطق والفلسفة.

هكذا تتضح أهمية المنهجية التاريخية من عدمها، في قراءة الناقد محمد مرتاض للحضور النقدي المغربي. وكأن الذي ينشغل به – بوصفه قارئاً ضمينا في الصناعة النقدية المغربية –، إنما هو التاريخ والشروط المؤسسة له. فهو، على سبيل التدليل، يتحدث عن وقائع التاريخ، وعن الزمان، والبيئة والأوضاع الثقافية والمذهبية، والصراعات السياسية، الداخلية والخارجية، التي وقفت حجر عثرة أمام تأخر/ارتقاء النقد الأدبي القديم في بلاد المغرب.

"إن النقد في المغرب العربي – يقول مرتاض – قد عرف تأخرا زمنيا عن نظيره في المشرق العربي نعهه ضروريا، بسبب توجه المغاربة توجهها فقها وإبداعيا.. واشتغالهم بالصراعات الداخلية أحيانا" (37).

هذا، ولسنا في حاجة إلى أن نفيض بشيء من التحليل في الأسلوبية النقدية، ذات الأفق التاريخي لدى الأستاذ محمد مرتاض، بل سنكتفي بالإلماع إلى بعضها استدلالاً وتمثيلاً:

– يقول: "حاولنا أن نؤرخ لظهور النقد الأدبي في المغرب العربي". (38)

– "وكما تعودنا عند الحديث عنهم [يقصد النقاد المغاربة] – أن نبدأ بأولهم من حيث الترتيب التاريخي" (39).

– "والذي يعيننا في هذا المقام، إنما هو البحث عن هذه المناهج النقدية في التاريخ الأدبي للمغرب العربي" (40).

– "ولكن ابن شرف، لا يكلف نفسه التفاتة بسيطة إلى شاعر قديم من المغرب العربي، كي يكون نقده أقرب إلى الصواب، وأكثر تمثيلاً للعصر وطبيعته" (41).

– "إن النقد المغربي القديم عني به معاصروه وسابقوه فوطن نظرياته على طبيعة العصر" (42).

إن ما ببيغيه، بالكلية، من المنهجية التأصيلية والتنسيب المرجعي لدى الناقد محمد مرتاض، لا يخرج عن اعتبارها منهجية تاريخية – تحقيقية للنقد الأدبي القديم في المغرب العربي؛ تؤمن إيماناً شديداً، بأنه لا يمكن لها تيك الصناعة أن تكون صورة من صور الوعي بالذات المغربية، ما لم يتم الوعي بها "تاريخياً"، وذلك عبر خطاب نقدي تأسيسي (43) يتميز بأصالته، ويحمل في ذاته شروط فاعليته التاريخية، القابلة لأن تحوله إلى نص مرجعي يمكن للشخصية بإقليم المغرب العربي أن تعتر به.

لقد شكل درس التأصيل التاريخي، قطب الرحى في قراءة الناقد محمد مرتاض للإسهامات النقدية المغربية القديمة. لأجل ذلك، فهو حين اصطفى المنهجية الوثائقية – التراكمية آلية، من بين آليات كثر، "لاستعراض" مناهج النقاد المغاربة و"تلخيص" منهج كل ناقد من النقاد الذين أخضعهم للدراسة" (44) (المنهج الذوقي، الخلقي، النفسي..)، إنما كان يروم – وهو القارئ الخبير (45) الذي يمتلك القدرة النقدية على التمييز في الخصوصيات القرائية لكل منهج، ومعرفة سابقها من لاحقها – تحققاً تاريخياً في تنسيب تلك المناهج النقدية إلى نسقها الثقافي المغربي الحاضر لها؛ وبالتالي إسنادها إلى هويتها التاريخية الأولى. إن هذه المباحث فيما نحسب – يقول مرتاض – تدل في شموليتها على تطور فكر النقاد في المغرب العربي، وتكشف عن إبداعاتهم في مختلف القضايا التي دفعت بالنقد العربي القديم خطوات جبارة صعداً. (46)

إن الذي نميل إلى الاعتقاد به، هو أن طرائق اشتغال أسئلة المنهج لدى الباحث المقتدر، الدكتور محمد مرتاض، كانت تنحو، أولاً، منحى "الاتساع" الذي يشمل نقاداً مغاربة نموذجيين، ويشمل قضايا نقدية استشكالية، ويطال إسهامات نقدية ممتدة عبر الزمن، تكون بدايتها الأولى، ترجيحاً لا قطعاً، مع رسالة ابن المدبر وما قبلها، ورحلتها مع إبراهيم الحضري، وابن رشيق، وابن شرف، والنهشلي، والقاضي عياض .. وهي تنحو، ثانياً، منحى "التدرج" في تحليلها وتأويلها لمجمل الأسئلة النقدية التي صاغها القراء – النقاد المغاربة آنئذ. (47)

ضمن هذا المرتكز المنهجي إذا، استطاع الدكتور محمد مرتاض أن يمتلك حدسا نقديا، أهله، في مراحل زمنية من تاريخ بحثه واستقصائه في نشأة النقد الأدبي القديم وتطوره بالمغرب العربي، أن يعتمد من وجهة، منهجية دياكرونية- تاريخية في منحها العام، رصد من خلالها، مجمل المحاولات النقدية النموذجية، واصفا ومستعرضا لأهم المقاييس التي اعتمدت في مناهجها. ومن ناحية ثانية، أسعفه ذلك المرتكز في بناء منهجية سانكرونية - تحليلية نقدية في منحها العام أيضا(48).

فإذا كان أفق توقع الناقد محمد مرتاض مصروفا، في القراءة الأولى، إلى " ثبت بالآراء التي احتوتها كتب الأقدمين والتعليق عليها"(49)، بالاتكاء على منهج نقد النقد الوصفي؛ فتم الترتيب والتصنيف لتاريخ الدراسات النقدية المغربية القديمة، وهو في ذلك كله إنما يدمر المسافة التاريخية، الفاصلة بين ماضي النقد المغربي وبين الأفق الذي يمكن أن يحياه في القرن العشرين، فإنه استطاع أن ينصرف في القراءة الثانية، إلى مقارنة تحليلية نقدية لمدرسة النقد الأدبي بالمغرب العربي.

يقول: "إن قيمة بحثنا تكمن في ثبت بالآراء التي احتوتها كتب الأقدمين أو تحليل كثير منها مع التعليق ونقد النقد، وإخضاعها لمناهج نقدية ومدارس خاصة"(50).

ويقول بخصوص قراءة ابن رشيق للبنية الإيقاعية في الشعر العربي: ". يجدر الذكر أخيرا أن ابن رشيق دارس للمصطلحات وليس مخترعا لها، لأنها أصلا معروفا عند غيره."(51)

- ويقول بشأن تصور ابن رشيق للقيمة الجمالية في الشعر، "هكذا يبدو أن ابن رشيق متفردا برأيه مستقلا بحكمه، وليس مقلدا، أو متأثرا بآراء السابقين عليه.." (52)

-ويقول بشأن النقد الذوقي: "ومن الخطل في الرأي أن يزعم زاعم أن هناك ناقدا لا يدخل في العمل المنقود ذوقه، ولا يحكم نفسه.." (53)

- "فإن ابن رشيق لم يكن ناقدا تقليديا يستعرض آراء سلفه ومعاصريه ويمضي، ولكنه كان متمكنا من النفاذ إلى العمق الفني..، وهو أكثر من ذلك ينهج نهج النقد التأويلي الذي هو أرقى المناهج.." (54).

- ويؤكد بخصوص تحديد النهج النحلي جودة الإنتاج بقيمة لا يقدمه ". وهذا الانتباه من الناقد النهشلي إلى هذين الأثرين (الأمكنة والأزمنة والبلاد) على إنتاج الشاعر يجعله أسبق في التنظير على كل من سانت بييف وتلميذه تين، وكذلك معاصره رينان ثم برونثير" (55).

- "إن هذا الناقد الذي يعتز به المغرب العربي بحث في كتابه المذكور كثيرا من الجوانب نتعمق في أصولها وفروعها؛ حيث إنه طبق المنهج النفسي أو ما شبهه في الكشف عن بعض الحالات العاطفية" (56).. إن ابن شرف قد تأثر تأثرا كبيرا بالمنهج النفسي، الذي وإن استكشف منذ أن نشر فرويد Freud كتابه: تفسير الأحلام عام 1900، فطبيعة هذا المنهج ولحاته الأولى كانتا مبثوثتين في نقد ابن شرف" (57).

إن الضوابط المنهجية التي توسل بها الأستاذ محمد مرتاض في استكشاف خصوصيات النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، بنيت على النسبية في ارتباطها بخصوصيات النص النقدي. إنه ليس ثمة من منهج نقدي يعد، في تصوره، صالحا دائما وممتدا عبر الزمن، كما أنه بالقدر ذاته ليس هناك من آخر يعد دائما فاسدا ومنحصرا؛ بل ثمة " تقنيات منهجية " يستوجب الأمر في وجودها وفي تبنيها، كفايتها الوصفية في تبين خصوصيات الصناعة النقدية في المغرب العربي بتم القرن الخامس للهجرة وبداية السادس.

هوامش الدراسة:

- (1) - من بين الأبحاث والدراسات الأدبية والنقدية والإسهامات الإبداعية، للأستاذ محمد مرتاض، نذكر:
 - شعر الفقهاء في المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية.
 - (جمع ودراسة - دراسة مرقونة، جامعة تلمسان، 1994).
 - من أعلام تلمسان: مقارنة تاريخية فنية.
 - النقد الأدبي القديم في المغرب العربي: نشأته وتطوره - (دراسة وتطبيق) - منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا - 2000.
 - الخط العربي وتاريخه. - من قضايا أدب الأطفال. - الموضوعاتية في شعر الطفولة الجزائرية. - الانتهازية (مسرحية، 1986). - النقيض (مجموعة قصصية). - ثمن الحرية (رواية). - وادي الأسرار (رواية، 2013)...
- (2) - النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص: 224
- (3) - انظر بشأن الخطاب المقدماتي، كتاب (الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة) نبيل منصر - دار توبقال، الدار البيضاء ط 1، 2007، ص: 72 - 73.
- (4) - بخصوص القارئ النموذجي، ينظر كتاب مايكل ريفاتير (Essais de stylistique structurale).
- (5) - النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص: 34.
- (6) - نفسه، ص: 68.
- (7) - نفسه، ص: 95.
- (8) - نفسه، ص: 148.
- (9) - نفسه، ص: 200.
- (10) - نفسه، ص: 11.
- (11) - نفسه، ص: 11 - 12.
- (12) - نفسه، ص: 198 - 199.
- (13) - نفسه، ص: 223.
- (14) L'acte de Lecture : théorie de l'effet esthétique- W.G.Iser P. Mardage- Bruxelles- 1985, p : 66.
- (15) L'acte de lecture , P : 154
- Pour une herménentique littéraire- H.P Jauss. Edit : Gallimard, Paris, 1988, P : 25 - 26
- Pour une Esthétique de la réception. H. R. Jauss. Edit : Galimard, Paris, 1978 ; P : 49 - 50
- (16) - انظر إشكال التحقيق، محمد الدغمومي وآخرون، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط 1، 1996، ص: 44 - 46.
- (17) - النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص: 8 - 10.
- (18) - إذا كان التأصيل من رحم الأصل، فإنه لا يتساهم، مع مفهوم الأصالة، كما ألفنا استعماله عند استدعائنا للزوج المفهومي (أصالة - معاصرة). انظر مقال: الذات المغربية ومسالك التأصيل، أحمد طايبي، موقع (منتدى الحجاج) www.Hijaj.net
- (19) استثمار المصطلح التراثي في اللسانيات الحديثة - أحمد المتوكل، مجلة (المنظرة) عدد 6، 1993، ص: 55.

- وانظر المجلة نفسها، ع 1، 1989، ص: 17.
- (من النص الى النص المترابط) سعيد يقطين، مجلة (عالم الفكر) عدد 2، 2003، ص: 73.
- (20)- qu'est ce que l'histoire littéraire ? (F.U.P), P 24 – 25/Clément moisan, 1987
- وانظر كذلك (البحث الأدبي) شوقي ضيف، ط. دار المعارف بمصر، ط الثانية، 1976، ص: 94 – 95.
- (21)- النقد الأدبي القلم في المغرب العربي، ص: 16.
- (22)- نفسه، ص: 18 و 23 و 26.
- (23)- نفسه، ص: 66 و 9.
- (24)- فخصوص الأسباب التي عناها مرتاض، يقول: " الصعوبة قائمة فيما يرجع إلى النقد المغربي القديم، وللحق اعترف أن الإقبال على البحث في هذا الإقليم يعد مغامرة...، فلم نجد من أرخ لهذا النقد من المشاركة في دراساتهم العديدة، وعجز المغاربة عن أن يقوموا بمحصر أو مع أو استنباط ما تركه الأسلاف، فجاء الجيل الجديد ليلقي فراغا مهولا.. " ص: 27 – 28.
- (25)- نفسه، ص: 36 – 37.
- (26)- نفسه، ص: 211.
- (27)- (إشكالية التحقيق) عمل جماعي – أحمد بوحسن، ص: 31.
- (28)- نفسه، ص: 33 – 34.
- (29)- انظر في هذا الشأن: كتابة التواريخ، عمل جماعي، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط 1، 1999، ص: 12-13.
- وكذا، كتاب شوقي ضيف (البحث الأدبي)، ص: 92
- (30)- النقد الأدبي القلم في المغرب العربي، ص: 31.
- (31)- نفسه، ص: 31 و 36.
- (32)- نفسه، ص: 70.
- (33)-انظر بهذا الخصوص، (الخطاب النقدي عند طه حسين)، أحمد بوحسن، ط دار التنوير، بيروت، ط 1، 1985، ص: 58 – 59.
- (34)- النقد الأدبي القلم في المغرب العربي، ص: 27 – 28.
- (35)- نفسه، ص: 30 – 31.
- (36)- نفسه، ص: 26.
- (37)- نفسه، ص: 30.
- (38)- نفسه، ص: 223.
- (39)- نفسه، ص: 101.
- (40)- نفسه، ص: 27.
- (41)- نفسه، ص: 64 – 65.
- (42)- نفسه، ص: 33.
- (43)- (كتاب التواريخ) عمل مشترك، عبد المجيد الصغير، ص: 120.
- (44)- النقد الأدبي القلم في المغرب العربي، ص: 202.
- (45)- L'acte de lecture, P : 66 – 67.
- (46)- النقد الأدبي القديم، ص: 199.
- (47)- Pour une herméneutique littéraire, P : 436.
- (48)- نجيب العوفي: التفكير المغربي، في الإبداع الأدبي، موقع وزارة الثقافة، المغرب.
- www.minculture.gov.ma
- (49)- النقد الأدبي القلم، ص: 9.
- (50)- نفسه، ص: 9.

- 51- نفسه، ص: 140.
- 52- نفسه، ص: 136.
- 53- نفسه، ص: 181.
- 54- نفسه، ص: 204.
- 55- نفسه، ص: 79.
- 56- نفسه، ص: 189.
- 57- نفسه، ص: 194.